رواية مشروع أومّا قراءة في ضوء النقد البيئي

أ.د. إشراق سامي عبدالنبي
مركز دراسات البصرة والخليج العربي/ جامعة البصرة
Email : isharaq-dr@yahoo.com

الملخص

اخترت النقد البيئي لمقاربة هذه الرواية وهو أحد المفاهيم الرئيسية في الأدب التي ظهرت في مرحلة ما بعد الحداثة ومنها : التأويل / الاستعمار / الجنوسة / الثقافة / التاريخ/ السياق/ القراءة .

والنقد البيئي هو الذي يعنى بدراسات المكان والطبيعة والبيئة في الخطابات والنصوص الإبداعية ، محاولاً كما هي باقي أشكال نظريات النقد ما بعد الحداثية كشف علاقات خطاب الهيمنة القائمة في النصوص الأدبية هذا الخطاب الذي يستغل ما يحيط بالإنسان من كائنات حية وطبيعة .

الكلمات المفتاحية : نقد بيئي ، رواية ، مشروع اوما ، لطفية الدليمي.

The Uma Project Novel: A Reading in the Light of Environmental Criticism

Assist. Prof. Dr. Ishraq same abdlalnabe
Basrah & Arabian Gulf Studies Centre / University of Basrah
Email : isharaq-dr@yahoo.com

Abstract

The researcher chose environmental criticism to approach this novel for it is one of the main concepts in literature that emerged in the postmodern stage, including: interpretation, colonialism, gender, culture, history, context, and reading.

Environmental criticism is concerned with studies of place, nature and the environment in creative discourses and texts, trying, as is the case with other forms of postmodern criticism theories, to reveal the relationships of the dominant discourse existing in literary texts, this discourse that exploits what surrounds man of living creatures and nature.

Keywords: Environmental Criticism , Novel , The Uma Project , Lutfia Al-Dulaimi.

المقدمة

(مشروع أومّا) رواية صدرت عن دار المدى في ٢٠٢١ وهي آخر عمل روائي للكاتبة العراقية لطفية الدليمي، تنحو هذا الرواية منحى مختلفاً عما هو معتاد من الكاتبة في التعامل مع اللغة والتراث والفكر الانساني بشكل عام والرافديني بشكل خاص، فهي تتحدث عن قرية متخيلة تسميها الكاتبة قرية الصافية تدور فيها العديد من الاحداث في اعوام مستقبلية و تتداخل مع المجتمع العراقي مثل وجود عصابات مسلحة وأحزاب وتجري فيها قصص حب بين الشخصيات.

في هذه الرواية تقدم الشخصية الإنسانية بصفتها خليطاً غير متجانس بين الخير والشر وهي بالنهاية صنيعة ظروف وبيئة معينة، هذا الخليط منح الرواية سمة ما بعد حداثية تكمن في تخليها عن لغة يقينية فهي تعتمد مبدأ الصراع في الرؤى والنقاش بين افكار مختلفة، لكنها حاولت أن تمرر مسألة تتبناها بوضوح تام خلال الرواية كلها، هذه الفكرة هي الخلاص الفردي في العودة إلى الطبيعة والتعلم منها وعلى هذا الاساس اخترت النقد البيئي لمقاربة هذه الرواية وهو أحد المفاهيم الرئيسية في الادب التي ظهرت في مرحلة ما بعد الحداثة ومنها : التأويل / الاستعمار / الجنوسة / الثقافة / التاريخ / السياق/ القراءة .

والنقد البيئي هو الذي يعنى بدراسات المكان والطبيعة والبيئة في الخطابات والنصوص الابداعية ، محاولاً كما هي باقي اشكال نظريات النقد ما بعد الحداثية كشف علاقات خطاب الهيمنة القائمة في النصوص الادبية هذا الخطاب الذي يستغل ما يحيط بالإنسان من كائنات حية وطبيعة .

تمتد الرواية عبر ٢٣٠ صفحة لتشرح تجربة اسمتها الكاتبة (مشروع أومّا) ولطفية هنا ستعود إلى احتفائها بالتراث الرافديني حين نعرف أن هذه التسمية هي لمدينة سومرية يقترحه شباب أختار أن يمنح الارض حقها بالاهتمام والحب وأن يؤمن بها ويبذل جهوداً مدروسة لحمايتها من مشاكل التصحر والاهمال وقلة الماء، كان هذا الحل هو الخلاص المرتجى من المجاعة والفقر وهو إحياء أيضاً بطريقة ما للهوية الحقيقية لسكان هذه الارض عبر اتصالهم الفطري بأصولهم الرافدينية التي ازدهرت بالنخيل وخيرات الارض .

يدرس هذا البحث طرائق تمثيل الوعي البيئي في الرواية عبر مبحثين :

الأول _ التمثيل الصريح

الثاني _ التمثيل التأويلي

معنى التمثيل في الرواية

تتحدث رواية (مشروع أومّا) عن العودة إلى الارض عبر مشاريع فردية مبادرة باعتبارها وسيلة النجاة من وضع إنساني وسياسي مرتبك تمر به البلاد منذ فترة طويلة صاغت تلك الرسالة الفكرية والانسانية عبر تمثلات، والتمثيل هو " مصطلح فلسفي يوحي، إذ يستخدم في علم العلامات، بأن وظيفة اللغة أن تنوب عن الأشياء، أي تحيل على واقع غير لغوي، ومن هذا المنطلق عدت الكلمات علامات تمثل اشياء العالم " [١]

التمثيل على وفق ذلك يعمل بوظيفة تربط بين الرواية بوصفها خطاباً نصياً منغلقاً على ذاته وبين المرجعيات الفكرية والواقعية أي هو من توكل له مهمة نقل التصور الواقعي عبر اللغة وادخاله في نظام سردي يعلي من المفوه الذي يحاول السرد تمثيله فهو " يقوم على سيرورة التعبير إذ أن كل الافكار تنتج عن طريق تمثيل لتعبير ما بما أنه العلاقة معدة لتخلق في ذهن المتلقي علامة معادلة للموضوع "[٢]

١_ التمثيل الصريح

وهو التمثيل الذي يعتمد على المفردة الواضحة والصورة والمشهد الذي ينتمي للفكرة، ويُفهم دون الحاجة إلى تأويل

وفي رواية مشروع أومّا كان الاحتفاء بالطبيعة واضحاً في ثنايا النص، احتفاء العارف العاشق الممزوج بالأرض فهي سخية بكل صور الحياة الخضراء الموحية لفكرة الاهتمام بالبيئة ويتم عبر:

اليوتيوبيا : بطريقة تشبه الاغراء بالجمال، تدور الأحاديث والسرد في الرواية عن جمال الطبيعة ووصفها والتركيز على عذوبتها بطريقة قصدية واعية في تبني فكرة أيديولوجية أيكولوجية . " آمنت زهيرة أن الطبيعة اختارتها منذ طفولتها دون توأمها زهور لتغدق عليها نعمتها وتهبها مفاتيح وعيها بالحياة، وها هي تضيء عقلها وتكشف لها عما ينبغي عمله قبل فوات الاوان"[٣]

تتعلق اليوتوبيا المختارة هنا بالطبيعة، عبر تخيل لمشروع أومّا في قرية من قرى العراق تعيش ما يشبه الاكتفاء الذاتي بالاعتماد على الموارد الطبيعية فيها، بعد أن عزم مجموعة من الشباب الواعي على مكافحة الخراب بالعمل المنظم والعودة الى الارض .

ولعل اليوتوبيا السائدة في الروايات باعتبارها مكاناً متخيلاً ترتبط بالغالب بصلاح النظم السياسية ومن ثمّ صلاح الإنسان ووجود العدالة وارتفاع القيم الروحية، ربما لا يبتعد الموضوع هنا عن هذه الزاوية ولكن بوجهة نظر أكثر فرادة، فهي لا تربط وجود مكان يوتوبيا بصلاح المنظومة السياسية التي تتتعلق بنتائجها المنظومة الاقتصادية والاجتماعية، وأنما تربطه بحلم مجموعة أفراد وجدت إن العودة إلى الارض الأم هو مفتاح الخلاص وإن صنع الجنان الأرضية ليس عملاً مستحيلاً اذا ما توفرت له الارادة اللازمة، لذا تستقطع الرواية من سردها الكثير من المساحات لوصف الطبيعة وصفاً مغنياً للخيال وقادراً على الايحاء بالجمال .

" قال عادل ما الذي ترونه أذن شخصياً أرى أننا لانبحث عن فردوس متخيل ولا نعمل على إيجاد جنة أرضية أو يوتيوبيا، لقد ضيقوا الخناق علينا، نحن في ضائقة والسلطة عاجزة تماماً ولم تعد تقدم الخدمات الاساسية مشكلتنا الاولى هي توفير الطاقة والماء والغذاء الكافي"(٤)

عبّرت رواية مشروع أومّا عن انحيازها الاخلاقي العميق نحو البيئة عبر مجموعة من الاستراتيجيات منها وصف الاماكن، اعتماد لغة عالية الاحساس، ربط الحاضر بالماضي عبر الانتماء إلى البيئة " أطلت حديقة مدهشة مساحتها ألف متر مربع على النهر، جمع فيها أصنافاً من النباتات والحيوانات الاليفة، تطاولت في الحديقة اشجار السيسم والمانغا العملاقة وشجرة منوليا وارفة وشجرة كامليا جاؤوا بها من اليابان، وثمة ورود من كل صنف وازاهير نادرة من كل لون، غطت الاسيجة متسلقات عطرة مزهرة، وفي الاحواض ازدهرت زنابق هولندية وتدفقت جداول صغيرة تعترضها صخور لتشكل شلالات مترقرقة في بركة تسبح فيها سلحفاة خاملة، واقيمت غرفة زجاجية يتخذونها دفيئة لنباتات الظل النادرة وزهور الاوركيد والاورتنسية، وعلى المرج كانت تمرح غزالتان صغيرتان، وفي نهاية الحديقة قرب شجيرات العنب والتفاح قفص كبير يتقافز داخله قردان يتشاجران ويزعقان، وتتدلى على اعمدة الشرفة الامامية ذات الجدران الخمس أقفاص طيور ملونة وببغاوات وهناك قطة سيامية بخطم وأطراف سود وأخرى شيرازية بفراء أبيض تعيشان بوئام في صالون البيت الانيق "(٥)

الأمر الذي امتازت به رواية مشروع أومّا التي تتبنى فيها الكاتبة ايديولوجية واعية تتمثل برفض كل هيمنة واستغلال وظلم، تلك القيم التي تحاصر الانسان في هذا البلد هي بشكل من الأشكال امتداد لتعامله الجائر مع البيئة وعدم احساسه بها، أن فقدانه لرهافة متابعة الجمال والامتثال له والاستجابة سلوكياً مع إشاراته هي من جعلت الانسان يتراجع نفسياً وبيئياً، لذا

تكون الشخصيات التي تتبنى الوعي البيئي في هذه الرواية لامعة وايجابية وقوية فهي تستمد طاقتها من هذا الكون المحيط، طاقة فطرية لم يشبها سوء فهم أو قسوة أو استغلال سيء، بل حب متناغم ومنسجم مع كل شيء :

"بالتأكيد لي رائحة نباتية، رائحة ورد جوري وورق نارنج ونعناع وطلع نخيل وما شئت من النباتات؛ فانا كما ترين أحيا بين الاشجار والعشب وقد أتحول يوما إلى شجرة في كل فجر أشرف على قطاف الورد مع العاملات واقوم أنا والفتيات بفرز الاوراق والورود الذابلة ومن ثم تنقل الفتيات السلال الى المعمل، ثم نلحق بهن انا وجدتي بعد ان نتناول فطورنا للإشراف على عملية الغلي والتقطير واستخراج زيت الورد وماء الورد "[٦].

وصف المكان الجميل عبر استعمال المفردة والصورة ونقل الاحساس لابد أن يحيل إلى القيم الانسانية المنشودة وهذه أيضا واحدة من وظائف النقد البيئي الذي ينتمي للدراسات الثقافية " فلا يمكن تصور تمثيل البيئة سردياً، أو سينمائياً، أو دراماياً، أوغيره، بما تحتويه من نبات أو طبيعة أو حيوان، من دون أن يحيل ذلك التمثيل إلى علاقات استغلال، وهيمنة اجتماعيين مبنيين على أيديولوجيا سياسية، أو دينية، تُخضع البيئة لتصوراتها ولغاياتها"[٧]

هيمنة الانسان وتسلطه كان السبب في تهديد هذا المكان الجميل المرتبط بوجدان الجدة، شخصية الرواية الرئيسة وهي تمثل وتدا يمتد بعمق الارض ويتماهى معها " تقول الجدة لزهيرة: الحياة هبة الله لنا كل هذه الارض الحقول كل هذا النخل، والشجر، نعمة علي أن احميها واخدمها، هذا واجبي وإرث أهلي أنا من عشت عمري كله على هذه الارض وتلذذت بثمارها وتمتعت بفرحها وتحملت احزانها ومصائبها "[٨]

النعمة الجميلة التي عاشت فيها هذه الجدة مهددة بالزوال بسبب سوء استخدام الانسان وجبروته ولامبالاته الا بمصالحة الآنية لذا استقت الشخصيات التي انتظمت ضمن فكرة إحياء البيئة استقت صفاتها من الطبيعة، فهي الاكثر براءة وقوة وانسجاماً مع الحياة وقدرة على الحب.

" تتيح الازمة البيئية العالمية دليلاً واضحاً لمناقشة المنطق الضعيف للتناصية المتطرفة التي تحول الطبيعة الى مفهوم تجريدي ، وبالتأكيد إن مثل هذه الرؤية تترك مجالاً ضيقاً للطبيعة لكي تؤثر بالتغيير الحاصل في الوعي الانساني" [٩]

تجترح الرواية وسائل خيالية فكرية تحث فيها نحو النظر إلى مسالة المحيط بالإنسان نظرة أكثر توازناً ورحمة نحو الكائنات الأخرى، فاتحة باب الخيال لتصوير معنى

نأن تزدهر أوقاتنا ببيئة نظيفة منتجة وصحية " صاح فلاح : ماهذا ؟ ارى لوحة انطباعية ، الوان ضوء ، الماء ، ما هذا ما هذا الجمال يا شباب أومّا ؟ رد فيصل : مهلاً لم تروا كل شيء . فتح الباب الخارجي للمبنى فاذا هم في حديقة ورد ونباتات مزهرة ، وثمة أصص من الفخار بلونها الطبيعي واسيجة من نبات الاس العطري مازالت في طور النمو، سياج السطح أتخذ شكل بناء مشبك من مقرنصات طينية تتخللها فتحات مثلثة، وظهرت من وراء السياج قباب معقودة من اللبن الطيني لسقوف الغرف" (١٠)

يمكن أن نطلق على هذا النوع من وصف المكان الطبيعي باليوتوبيا الاجتماعية فرغم إنها تركز على الطبيعة تركيزاً كاملا محاولة تفعيل كل امكاناتها لخلق جنان أرضية الا أن هدفها اجتماعي فهي لا تريد للإنسان أن يكون مثل روبنسون كروزو في تماس طبيعي من أجل حياته هو كفرد أو عائلة، لكنها تريد أن تصنع من الاحتماء بالطبيعة أسلوب حياة يخدم المجتمع ويفعل المبادرات وينجح التعاون والعمل المشترك في المشاريع فهي تهدف الى خدمة المجتمع من موقع خاص تتصور الشخصية انها قادرة أن تفيد منه غيرها "(١١)

"ظهرت ملامح المشروع الاولية خلال ثمانية شهور، ازدهرت مزارع أفترسها الجفاف وجار عليها الاهمال سورت المزارع لردع المواشي والحيوانات البرية بصبار التين الشوكي المثمر بديل الاسلاك الشائكة ،غطى نبات الصبار _بخضرته المائلة الى الزرقة _ الحافات الترابية التي تفصل بين المزارع، استعادت البساتين التي لم تتعرض للحرق رونق الاثمار وشعت روائح الفواكه في فضاءاتها، اينعت اشجار السدر وتشامخت اشجار اليوكالبتوس سريعة النمو والقت ظلالاً رطبة مفعمة برائحة الكافور على حافات البلدة؛ بينما ازدهرت أشجار الزيتون والسرو على الطرقات التي أتم المتطوعون تعبيدها وتنظيم أرصفتها"(١٢)

الدستوبيا: وهي المقابل لليوتوبيا والمعاكسة لمعناها فهي المكان المزدحم بالخراب وبانهيار القيم والتراجع السياسي والاجتماعي والاقتصادي وبالتأكيد ستكون البيئة والطبيعة إحدى أهم أشكال الخراب الذي تستعمله الكاتبة بقصد توجيه النظر إلى تلك الزاوية المهملة، وهي قدرة الانسان حين يقرر أن يكون فاعلاً وأن يحنو على الطبيعة فيتبادل هو وإياها الرعاية والعطاء فالدستوبيا هي " مجتمع غير فاضل تسوده الفوضى، فهو عالم وهمي ليس للخير فيه مكان،

يحكمه الشر المطلق، ومن أبرز ملامحه الخراب، والقتل والقمع والفقر والمرض، باختصار هو عالم يتجرد فيه الإنسان من إنسانيته يتحوّل فيه المجتمع إلىٰ مجموعة من المسوخ تناحر بعضها بعضاً. ومعنى الديستوبيا باللغة اليونانية المكان الخبيث وهي عكس المكان الفاضل يوتوبيا. (١٣) من وجهة نظر النقد البيئي سيكون هذا المكان الدستوبي هو الذي تتراجع فيه قدرة الطبيعة على إنتاج التوازن الامر الذي ينعكس على الإنسان، ورغم أن رواية مشروع أومّا هي رواية أمل بمعنى أنها تستنهض قدرة الانسان على مقاومة البشاعة لكنها أيضا استعملت المكان المخرب من اجل التنبيه الى خطورة الاستسلام او اللامبالاة .

" اجتازا الاراضي المزروعة التي تحاذيها أراضٍ بور غدقة هي بقايا مستنقعات قديمة كان ينمو فيها القصب والبردي ويبدو انها جفت وهلك القصب وماتت جذور البردي وتشكلت على سطحها كتل ملحية بيضاء" (١٤)

قرية الصافية هي مكان متخيل لكنها تشبه أو تشترك مع أغلب القرى في العراق، تستبق الرواية الزمن بما يزيد عن العشرة اعوام فهي تتحدث عن مستقبل مخيف تفترضة يبتلع الايام القادمة اذا كانت ردود أفعال الناس تجاه المشاكل والخراب هي ذاتها وحدها روح المبادرة والايمان بالذات والعودة إلى الارض " أن ما بعد الانساني يستدعي الاحتمال المبشر في الخروج من بعض الصناديق القديمة وفتح طرق جديدة للتفكير حول معنى الوجود الانساني "(١٥)

تنتمي هذه الرواية لطرائق التفكير الجديدة تلك فهي دعوة لخلاص ممكن وواقعي وحين يتأخر أو نعجز عنه فالنتيجة بالطبع ستحول المكان إلى كابوس دستوبي فعلي " الا ترى أننا جميعاً مسؤولون عن هذه النهايات الفاجعة ؟ ربما بتساهلنا في مسألة الكرامة الإنسانية، نحن شركاء في جريمة الصمت وشركاء في اللامبالاة فلنبدأ بأنفسنا " (١٦)

التحذير من النهاية الفاجعة كانت نسبياً أقل من مساحة التبشير بالتقدم والمحاولة لكنها أيضا كانت أحدى وسائل فكرة العودة للأرض والحوار معها، تجسّدت المدينة الفاسدة في عدد من الأعمال الروائية الغربية وكان حضورها لافتًا في القرن العشرين، إلا أنها وجدت بيئة خصبة لها في العالم العربي أخيراً من خلال أعمال روائية أزعجها الواقع وسيطر عليها التشاؤم الذي يصفه الباحث بكونه دفاعيًا يحذر من القادم الذي قد يصير أسوأ من الراهن" (١٧) لم تكن رواية مشروع اوما ذات نظرة تشاؤمية بقدر ما كانت تحاول التحذير والانذار " بدا أن العالم

القديم آخذ بالانهيار سواء ببنيته السياسية المفككة أساساً أو بموارده الموشكة على النضوب، أو بانفصاله عن التطورات التقنية المتسارعة وبقائه خامداً تحت وطأة أشباح الماضي ومع انحلال المجتمع إلى تقسيمات عرقية ودينية وطائفية من جهة اخرى بدأ التدهور البيولوجي للبشر يغير سلوكياتهم تجاه القوانين الاجتماعية " (١٨)

انهيار العالم وانتشار الخراب في كل مكان هو الذي أثر على سلوكيات البشر وعادة ما تتمظهر الديستوبيا على وفق مستويين الأول مادي منظور كالقتل والقمع والفقر والخراب والعنف والمرض والفقر وكل مظاهر انتهاك الوجود الانساني ، أما المستوى الثاني فيتبدى او يتمظهر في الخراب النفسي الداخلي للإنسان كالافتراق عن المبادئ وشيوع مظاهر الخداع والغش المعبرة عن فساد النفس البشرية ، فيتحول المجتمع إلى مجموعة من المسوخ البشرية التي يقتل بعضها البعض ويتجرد فيها الانسان عن انسانيته.

"وضع مسلحون فوهة الرشاش على عنق ابراهيم ،قالوا له :قد السيارة ولا تنبس بكلمة نحو نصف ساعة تولى احد الخاطفين قيادة السيارة وعصبوا عيني ابراهيم وقيدوا يديه "(١٩).

تبدو مظاهر الديستوبيا في المنجز الروائي تحديداً في محاولة تسليط الضوء على الواقع الفعلي للمجتمع والمنظومة القيمية التي توجه مساره من قضايا تتعلق بالمجتمع والدين والسياسة والقيم الروحية بشكل يفترض انأن يكون خيالياً لكنه بكل الاحوال يستمد تمثلاته الواقعية والغرائبية .

"قبل بزوغ النهار ، غادر القتلة الباقون بغنائم واسرى ، ترفرف فوق رؤسهم وعمائمهم رايات سود مختومة بأسماء الله ، انتحبت الامهات الثاكلات والزوجات المكلومات في موكب حزين، ترملت سبع نساء تلك الليلة واختطفت تسع فتيات وثمانية من الشباب، تهاوت الامهات المنتحبات أمام بيوتهن، جزت الزوجات الشابات ضفائرهن ولوحن بها طلبا للثأر وتهييجا لمشاعر الرجال الناجين المدافعين عن البلدة " (٢٠)

تنقل الصور الدستوبيا للمكان فكرة مزدوجة تعبر عن الرغبة بالحياة عبر زوايا مختلفة تقترح المقاومة لأنها تنذر بصورة مكبرة للخراب والرعب، فالتعبير الواضح عن واقع غير جيد أو يبتعد كثيرا عن هدف الانسان في الحياة المتوازنة المريحة ، يمثل واحدة من أهم صيغ الانسان في الرفض للواقع المشوه القبيح واقع مؤذ للإنسان منفر لمن يتابعه أو يتخيله لذا فان " التحليل النقدي البيئي للنصوص الأدبية في منظور ما بعد الحداثة في نفسه متعدّد المعاني،

متعدّد البؤر، ينفتح على استراتيجيات جديدة في القراءة، ويأخذ في اعتباره صراع وجهات النظر، ويفجّر ويشارك في القضايا البيئية مع اهتمام جاد بالطرق التي كتبت به" [٢١]

تقوم معادلة اليوتيوبيا والدستوبيا في رواية مشروع أومّا بذات العمل وهو الحث على بذل المجهود ودرء الاستسلام لأن الحياة هبة جميلة، تصورها الرواية بأعذب الصور والكلمات عندما تفتح لنا باب الحدائق الغناء وهي تسرد لنا ما يحدث في مشروع أومّا الذي اتخذه الشباب المتعلم والمغروسة روحه بأرضه ما يحدث من إعلان للطبيعة عن خيراتها وتوازنها وجمالها بذات الوقت سترسم لنا صورة محذرة من أثم الاستسلام، صورة تبدو مطابقة لواقع مألوف وليست صنيعة الخيال، لكن الخيال في هذه الرواية هو المبشر بالخلاص عبر رفض هيمنة الأنسان على الطبيعة واستغلالها ببشاعة ودون حب .

المبحث الثاني : التمثيل التأويلي

واعني به الوصول الى ذات الفكرة ولكن بطريقة تحتاج إلى التأمل واعمال العقل قليلاً، وبوعي يشمل المفردة والصورة والقصة ومنتوج الايديولوجيا اعتمدت الرواية هنا على فكرتين هما :

١ الحبكة

تقوم الرواية على حبكة توصل الحب الأرض والبراءة بالسلام والأصالة بالقدرة على التجدد فتصنع شخصيات قوية قادرة على التأثير وتستمد قوتها وفعاليتها من الطبيعة مثل الجدة وهي سيدة تملك الاراضي في قرية الصافية " اعتادت السيدة فوزية قبل شروق الشمس أن تتجول على جوادها مرتدية ثياباً فضافضة ، ينحسر وشاح رأسها قليلا عن شعرها الرمادي المنسدل ولا تبالي، تتفقد املاكها وتطمح للمزيد وتمد ظلال سلطتها على البلدة واناسها، تقول للزمن النساء البريات أمثالي شبيهات النخل العنيد لا يهزمهن ترمل ولا يوهن عزيمتهن ثكل بابناء"[٢٢]

تستمد الجدة فوزية قوتها من الطبيعة فهي تشبه النخيل مرفوعة الرأس شامخة دائما، تحرس أرض العائلة وتمنح ابنها عادل وحفيدتها زهيرة مفاتيح التحكم بالملك بعدها، وتسير الحبكة هنا بطريقة مناسبة مع أقتراح الرواية فكل من الشخصيتين يعتنقان هذا الفكر الأخضر والحبكة في تعريفها البسيط هي سلسلة من الاحداث المترابطة حسب السببية لتقود إلى نتيجة معينة أو تسمى العقدة في القص وحسب قول الروائي اف سكوت فيتزجيرالد " أن الشخصية

هي الحبكة والحبكة هي الشخصية" للأشارة إلى ارتباط واحدة بالثانية، في رواية مشروع أومّا أقتراح ليوتيوبيا تقنية لا تقوم على التنظير والقوالب الايدلوجية إنما على محاولات بشرية تعتريها كل الاخطاء والاحباطات والتنوع في الطرح وفي السمات، الأمر الذي منح حبكتها روح المفاجأة والغموض، تبدأ الرواية بعلاقة حب بين أبراهيم وزهيرة ولكل منهما ارتباطات وتجارب الا أن ارتباطهما بالمكان بطريقة واعية ومفيدة جعل هذا الحب يمضي بطريقة صحية وحقيقية ومنتجة رغم كل المشاكل التي واجهته " نبت الرجال دغلا من اشجار الخوف في عقل زهيرة عبر ترهيب جدتها والمربية لها ، كانتا تتآمران معا، وتخترعان القصص المروعة ، تخنقان شبابها بالرقابة والتحذيرات حتى ازدهرت غابة الرعب في اعماقها وتشابكت طوال سنوات صباها ومراهقتها" (٢٣)

هذه التربية الصارمة لم تمنع بذور الحب أن تنمو في صدر زهيرة فالحب هو المعادل الموضوعي للجمال هو أيضا ميزان حساس ومدهش للانتصاف للخير "ومن النتائج التي تترتّب على مركزية الفعل– الحبكة في تحديد الهوية السرديّة عند بول ريكور هو مظهرها الأحادي الذي يتعارض مع التفاعل الذي يقتضيه مفهوم العلاقة إليه سابقا. ،إنّ أيّ حكي إمّا أن يُصوِّر الفعل في هيئة تعاونيّة (التعاون بين ذوات في إنجاز فعل ما) أو هيئة صراعيّة (الصراع بين ذوات مختلفة حول موضوعات القيمة"(٢٤). تميزت هذه الرواية بتوظيف الاختلاف توظيفا تعاونيا عبر علاقة حب أولاً ثم الصداقة التي تضافرت جميعها من أجل مشروع بيئي خلاصي ينطلق من الواقع ويتعامل معه بوعي .

الحب واستمراره ثم نهايته بشكل صحيح كان يسير منسجماً مع فكرة الطبيعة التي تحث على كل ما هو فطري وحقيقي واصيل، الامر الذي جعل زهيرة تغادر منطقة الريبة التي زرعتها فيها الجدة لتكتشف داخلها مكاناً آمناً آخر مخصصاً لحب رجل تشترك معه بهم الارض وهمة العمل ." ما أن دخلت البيت حتى انقبض قلبها المنتشي ، نشب في اعماقها صراع بين نور وهاج وقبضة معتمة تطبق على روحها ،نور اضاءه ابراهيم لكنه لم ينجح تماما في ازاحة تلك العتمة التي تكثفت في اعماقها طوال سنوات اليتم والعيش الشاق مع الجدة وتناقضاتها برغم الرفاه الذي يطبع حياة البيت الكبير " (٢٥)

يستمر السرد في تغذية الفكرة البيئية الخضراء في نفس الوقت الذي يشرح بحبكة وعقدة فنية كيفية اكتمال قصة الحب هذه " ينظر الناقد البيئي الى فعل السرد في نص بيئي معين

كعملية دلالية ،ويمكن له ان يكشف الكيفية التي تولد فيها المعاني ما فوق الطبيعة ضمن خطابات معينة" [٢٦] الخطاب الايديولجي الاجتماعي الذي يتباه كل من زهيرة وابراهيم هو من يتيح لحبكة اللقاء والعشق أن تنمو وتتصاعد بروية ونضج لأنهما يمثلان فكرة واحدة أي خطاب متشابه قائم على الايمان بروح الاشياء العميقة وادراك معنى الحياة ببساطة وعمق " يروي ابراهيم لفيصل قصة صغيرة عن الأوز البري، يتحدث عن الفارق بين الإنسان والشجر والحيوان ،، كثير من البشر منكفئون على أنفسهم وراضون بأدنى حاجاتهم، لا يرون الجمال في فعل العطاء والتخلي، بل تزين لهم دودة الجشع أن يكسبوا بالتحايل والغش والسرقة ما ليس لهم وعندما يتلبثون حضيض لعبة السعي من أجل المزيد ،، وتلك لعبة قاتلة مفتوحة النهايات.

"وماذا عن الشجرة ؟

تكتفي الشجرة بغذائها اليسير من التربة الطيبة والماء، وتصنع في نور الشمس غذاءها وفي عتمة الليل تمنحنا بكرم لا تدعيه الأوكسجين الذي يبقينا ويبقي الكوكب في بهجة الحياة"[٢٧]

ويتضح الانسجام بين حبكة الرواية وبين الثيمة الرئيسة فيها عبر دخول شخصية زهور وهي الاخت التوأم بينها وبين حبيبها أبراهيم محاولة الاقتراب منه أو اغرائه ، يواجهها ابراهيم بحقيقة أنها مختلفة فقد نشأت في بيت يونس المنذري حيث الأفكار المادية والأنانية والتي لا تؤمن بوحدة الكون وتناغمة " اسمعي دكتورة : أنا من اخترت زهيرة منذ سنوات بعيدة ولا احد يستولي على احد ، نشأنا انا وزهيرة معاً وجمعتنا مشتركات لا تخطر على بال أمثالك"[٢٨]

تستنهض زهيرة التي أورثتها جدتها فوزية الصافي القوة والقدرة على التأثير وحب الطبيعة همم مجموعة من الشباب لصناعة مشروع خاص بإمكانات واقعية للتمرد على حالة التراجع والفوضى ،هذا المشروع الذي تقترحة الرواية مشروع خلاص انساني من مأزق جماعي يسير مع قصة حب صادقة وملهمة " نحدثكم عن تجربتنا وخبرتنا بخاصة في الزراعة ، الغذاء اهم ضرورات بقائنا ، سنريكم كيف وجدنا مصادر للمياه وكيف بنينا الابراج التي لم تكلفنا كثيرا"[٢٩].

٢- التسمية

تتميز الأسماء في رواية (مشروع أومّا) بانسجام كبير مع التوجه الفكري للرواية الذي يطال بالإحساس بالبيئة والاهتمام فيها " يرى السيميائون أن الاسم علامة تحيل إلى نسق

معلل، مبني على أساس علاقة المحاكاة فالأعلام بوصفها علامة سيميائية ، ترتبط بالمحيط العام والبيئة التي نشأت فيها " [٣٠]

السيدة فوزية الصافي الجدة يقترن اسمها بقرية الصافية التي تدور فيها الأحداث فهي مالكة لأراض وبساتين فيها ، أما شخصيتها ففيها معنى الانتصار والفوز ، الفوز على الضعف وتحدي صعوبة الحياة فهي شخصية تجمع بين الرقة والحنو وبين التسلط والقوة " تعبت يا فوزية الصافي، لا تكابري، استنفذ الزمان قوتي وصحتي ، واخذت البلدة والمدرسة كل طاقتي، حسبك مكابرة يافوزية، الن تعترفي ؟ تخشين شماتة النسوة وسخرية الرجال ؟ لا ،لن اعترف ولن اتراجع ، لن يحدث هذا حتى مماتي "[٣١]

يحمل الاسم في طياته دلالة مقصودة فالصفاء الذي يرتبط بالبيئة أيضا ويحيل إلى الماء أو السماء كصفات متلازمة مثلاً ويرتبط بصفاء النفوس ستعادله صفة الفوز التي ترتبط إلى حد بعيد بشخصية الجدة المتسلطة وربما المتناقضة في الصفات، وهذه أيضا واحدة من سمات ما بعد الحداثة فالشخصيات لا تملك حدوداً واضحة بين الخير والشر لكنها متداخلة وانسانية وقابلة للتطور والنمو " كانت الجدة اما ومعلمة ، كانت ضدا مناقضا وسندا رحيما ، كانت جبارة ونزيهة الروح ، كريمة وجشعة ، شرسة ومتغيرة ، متعلمة وقارئة وعاشقة للحياة"[٣٢].

زهيرة

وهو أسم يحيل إلى الورد وأن كانت بصيغة صرفية غير معتادة، هذه الغرابة في الأستعمال تناسب أيضاً حدود الشخصية التي جعل منها السرد متميزة بصفات غير معتادة، اهمها أرتباطها بالحياة الطبيعية فهي أبنة البراري والانهار " آمنت زهيرة أن الطبيعة أختارتها منذ طفولتها دون توأمها زهور لتغدق عليها نعمتها وتهبها مفاتيح وعيها بالحياة ، وها هي تضيء عقلها وتكشف لها عما ينبغي عمله قبل فوات الاوان" [٣٣]

جمع اسم زهيرة بين دلالة الانتماء إلى البيئة وبين دلالة التفرد وربما أيضا يحمل إيحاء بالشباب فهو تصغير لزهرة ، فهي من مجموعة الشباب الذين ابتكروا عبر نبوءة خاصة بالخلاص وسيلتهم للتصالح مع الحياة و" في الغالب يبذل الكتّاب جهداً لجعل الأسماء مطابقة، وذات إيقاع، وتكتب حسب الطبقة الاجتماعية للشخصية المحكي عنها"[٣٤]

فلاّح

من ابتكارات الرواية اللطيفة هذا الاسم فلّاح بتشديد اللام ليدل على الارض والزراعة والري وهو أحد شباب المجموعة التي اجتهدت في اقامة مشروع أومّا " اسمي فلاّح ياجماعة بتشديد اللام اسماني والدي فلاح لأنه فلاّح لأنه عاشق الزراعة والنبات : أنا زارع يحيا بالتراب والشمس والماء، أزرع وأجني وأغوص في الأعماق المعتمة ،متألفاً مع الجذور "[٣٥]

على القارئ التقاط الاشارات المضمنة في الاسماء المختارة في هذه الرواية فهي جميعها تعمل بوصفها علامات سيمائية دالة تخدم الموضوع الاساسي وهو العالم الاخضر ، استعملت هنا ضمن التمثيل غير المباشر للبيئة

وهناك اسماء اخرى مثل روضة وزهور وهي لاشك ايضا تنتمي لذات الايحاء والصورة التي تحث على الاهتمام بالطبيعة وتوصي الانسان المعاصر بان يتوقف قليلا ليتأمل هذه القضية ويؤشر النقد البيئي " إلى مذهب الفعالية والمسؤولية الاجتماعية ،كذلك يؤشر انصراف اكثر نزعات النظرية تأكيدا على الذات ، اما من الناحية الادبية فاتنه يوشر إعادة الانهماك بالواقعية والعالم الفعلي من الصخور والاشجار والانهار "[٣٦]

تدخل اسماء الشخصيات في هذه الرواية ذات الحقل االدلالي الذي يبتكر فكرة السرد الاخضر الذي يجعل من قيم العدالة والانصاف ومقارعة الظلم خطاباً له ،لكنه يرتبط بالواقع االفعلي للطبيعة وتطويرها والحفاظ عليها بوصفها تنعكس بشكل مباشر على حياة الانسان اولاً وعلى حياة الكوكب بكل تنوعاتها ثانياً .

الخاتمة

تدخل هذه الرواية بالكتابات ما بعد الحداثية التي تعلي من شان الاهتمام بالبيئة وهو أتجاه فكري يحاول رأب الفجوة بين الواقع والنصوص وأيضا بين العلوم التطبيقية والانسانية لخلق نصوص تحمل مسؤولية ورسالة فضلاً عن وظيفتها الجمالية، ولا يبدو الربط بين الثقافة والطبيعة معتادا، فهو تيار معاصر نشأ منذ الثمانينات ليركز على القضايا الانسانية المعاصرة التي تشكل تهديدا حقيقياً على حياة الانسان والكائنات المحيطة به، وبالتالي لابد للأدب بوصفة صيغة معرفية أيضاً أن يتخذ موقفاً واضحاً من هذه القضايا ويشير إليها بوعي على اقل تقدير .

لا تكمن فرادة رواية مشروع أومّا في اختيارها للبيئة والحديث عنها انما ايضا بالأسلوب البسيط المباشر الخالي من التعثر بما يثقل انسياب النص من شعارات لا تنتمي لروح الفكرة، حاورت هذه الرواية الافكار المتصارعة فيها باعتدال وموضوعية وجعلت منها في النهاية توليفة واقعية تتحدى الاستسلام وتتقدم خطوة في طريق انسانيتها الحقة .

الهوامش

(١) معجم السرديات / اشراف القاضي / الناشرون /دار محمد علي للنشر – تونس /٢٠١٠.

(٢) التمثيل السردي في رواية قسوة اب لاسيا غماري انموذج/ رسالة ماجستير من جامعة اكلي محند اولحاح / البويرة / الحمهورية الجزائرية /شبوط لويزة / اوشن زليخا . ص ٢٠ .

(٣) الرواية ص ٨٦.

(٤) الرواية ص١٠٦.

(٥) الرواية ٥٦

(٦) الرواية ٦١

(٧) مقال وعرض لكتاب النقد اللبيئي للدكتور عقيل عبد الحسين .

(٨) الرواية ٦٦

(٩) النقد البيئي ،مقدمات ، مقاربات ، تطبيقات ١٣٩

(١٠) الرواية ١٦٥.

(١١) ايدلوجيا التقدم ووتمثلات اليوتوبيا في الرواية العربية المعاصرة / عبد الله بن صفية / منشورة في موقع مومنون بلاحدود دراسات ادبية / ٢٠١٦

(١٢) الرواية ١٣٤.

(١٣) ادب المدينة الفاسدة / مجلة فكر / عدد يوليو ٢٠١٩/العدد ٢٥/ ص ١٢.

(١٤) الرواية ٩٦

(١٥) النقد البيئي ١١١..

(١٦) الرواية

(١٧) ينظر كتاب الدستوبيا الروائية نجدي عبد السلام

(١٨) الرواية ١١٦

(١٩) الرواية ١٥٤

(٢٠) ٣٦

(٢١) النقد البيئي مفاهيم وتطبيقات / تحرير ابو المعاطي رمادي ، معجب العدواني/ موسسة الانتشار العربي

(٢٢) الرواية صفحة ٣٣

(٢٣)٢٦

(٢٤) الحبكة والهوية السردية مازق بول ريكور عبد الرحيم جيران/ موقع الجسرة الثقافي الالكتروني / https://aljasrah.net/aljasra39888

(٢٥) الرواية ٢٤

(٢٦) النقد البيئي ١٤٢

(٢٧) الرواية ١٨١

(٢٨) الرواية ١٢٤.

(٢٩) الرواية ١٣٧.

(٣٠) مجلة التراث الشعبي ص ٩٦.

(٣١) الرواية

(٣٢) الرواية ١١٧

(٣٣) الرواية ٨٦

(٣٤) اسماء الشخصيات في الاعمال الروائية / امين تاج السر مقال منشور في موقع الجزيرة الثقافي .

(٣٥) الرواية ٥٠

(٣٦) النقد البيئي ١٠١

المصادر

١. اسماء الشخصيات في الاعمال الروائية / امين تاج السر مقال منشور في موقع الجزيرة الثقافي الهوامش .

٢. ايدلوجيا التقدم ووتمثلات اليوتوبيا في الرواية العربية المعاصرة / عبد الله بن صفية .

منشورة في موقع مومنون بلاحدود دلااسات ادبية / ٢٠١٦.

٣. التمثيل السردي في رواية قسوة اب لاسيا غماري انموذج/ رسالة ماجستير من جامعة اكلي محند اولحاح / البويرة / الحمهورية الجزائرية /شبوط لويزة / اوشن زليخا.؟

٤. الحبكة والهوية السردية مازق بول ريكور عبد الرحيم جيران/ موقع الجسرة الثقافي الالكتروني .

٥. ينظر كتاب الدستوبيا الروائية/ نجدي عبد الستار/دار النابغة للنشر والتوزيع /٢٠٢٠.

٦. معجم السرديات / اشراف القاضي / الناشرون /دار محمد علي للنشر – تونس /٢٠١٠.

مشلروع اوما / لطفية الدليمي / دار المدى للطباعة.

٧. مجلة التراث الشعبي .

٨. النقد البيئي ،مقدمات ، مقاربات ، تطبيقات / ترجمة نجاح الجبيلي / دار شهريار للطباعة والنشر / العراق ٢٠٢١ .